مسلمون تاكفو

بقلم
محمد خليل الكسيح

إهداء

القصة إهداء إلى عائلة العابد بمدينة غزة بحي الشجاعية، وإلى كل أهل الحي، وإلى كل أحبابي الذين عشت معهم طوال 7 شهور كاملة خلال عام 1998، وإلى الشهيد محمد العطلة زميل السلاح، وإلى كل من شاركوني الأحداث طوال تلك المدة.

مقدمة

كانت هذه الأحداث خلال 7 شهور كاملة قضيتها في غزة بين عامي 1998، 1999 وهي مدة التصريح الذي دخلت به خلال تلك الفترة حيث كنت أعمل برتبة ملازم أول بالقوات الجوية أو فيما يعرف باسم القوات الجوية الفلسطينية. وخلال تلك الفترة كنت أعيش بالقرب من معبر المنطار جنوب غزة في مكان يسمي "كارني" والذي كان في الأساس مصنعًا للشيكولاته ثم تحول ليكون مركزا للقوات الجوية الخاصة بالسلطة الفلسطينية، أما الآن فهذا المكان محتل من قبل القوات الإسرائيلية .

البداية من محطة القللي

لم أتخيل أننا أصبحنا بالفعل داخل المستوطنة، نظرت حولي لأجد الجميع يتطلع إلي نبيل وشادي وفداء ومصعب ومجدي وغيرهم كأنهم ينتظرون مني الأوامر فابتسمت وأنا أقول:- "ما تنسوش يا شباب الله أكبر مسلمون تاكفو".

بدأت القصة بحي القللي برمسيس بمدينة القاهرة، كنت أستقل التاكسي المتجه إلى معبر رفح وكنت أجلس في انتظار أن يكتمل العدد بالتاكسي حيث تبقت ثلاثة كراسي خاوية ولم أجد خيرا من تلاوة القرآن في تلك الرحلة المفاجئة والتي لم أكن أتوقعها، فبعد أن تخرجت من الكلية الجوية بليبيا وكنت أنتظر بعد التخرج قرار تكليفي بأحد المطارات بليبيا أو بالقوات الفلسطينية هناك ولكنني فوجئت بحصولي على تأشيرة خروج نهائي من ليبيا وهذا يعني خروجي من ليبيا مدى الحياة وعدم التفكير في الرجوع مرة أخرى ربما أكون أكثر حظا من الآخرين الذين طردوا من ليبيا ولم يجدوا مكانا سوى الطريق الصحراوي ليناموا به فلا أمل لهم في دخول غزة أو مصر أو العودة إلى ليبيا أما أنا فلدى إقامة بمصر حيث أنني أساسًا من مواليد القاهرة حي الأزبكية، ولكني قضيت حياتي في مصر بحي بولاق الدكرور وحقيقة أنا لا اعرف عن فلسطين الكثير فأنا لم أزورها من قبل، وحتى الفلسطينيين الذين تعرفت عليهم كانوا لاجئين

من سكان الأردن أو الكويت أو الجزائر أو غير ذلك، وأسرتي مصرية من المحلة مركز سمنود، فوالدتي مصرية بينما والدي فلسطيني متوفى لذا لم أكن اعرف شيئا عن فلسطين الكثير ولكني بطبيعة الحال أعرف أنها محتلة وأنني لأدخلها لا بد من تصريح من الحكومة الإسرائيلية والتي كان يتزعمها نتنياهو في ذلك الوقت.

ولحسن الحظ عندما كنت أسافر إلى خارج حدود مصر كنت أحصل على تأشيرة عودة بسنة وهذا يعني إمكانية العودة بعد سنه، وعندما عدت كنت أنتظر الدخول إلى غزة لاستلام عملي كضابط بالسلطة الفلسطينية ولكن هذا لم يحدث، فالمفروض أن توافق الحكومة الإسرائيلية على دخولي وفق اتفاق أوسلو ولكن قُتل "رابين" في الفترة التي كنت فيها داخل مصر وعندما تسلم نتنياهو تم إلغاء تأشيرة دخولي إلى غزة وبقيت في مصر.

وطوال عامين ونصف العام كنت أطرق أبواب السفارة الفلسطينية في مصر لحل مشكلتي حيث بقيت طوال تلك المدة بلا راتب أو حتى اعتراف بي كضابط بالجيش الفلسطيني وبقيت هكذا دون أمل في الدخول أو حتى إيجاد. ومللت طرق أبوابها دون جدوى وبدأت في العمل كمدخل بيانات حيث كنت امتلك والحمد لله مهارات في مجال الحاسب الآلي (الكمبيوتر) وكدت أنسي أنني ضابط بالجيش

الفلسطيني حتى جاء أحد أصدقائي ليزورني من غزة وأخبرني بأنه سوف يقوم بعمل تصريح لي للدخول كمحاولة، وكان يبدو هذا مستحيلا فلعمل تصريح لابد أن يكون من أحد أقاربك ذوي القرابة الأولى كالأب والأخت والزوجة ولم أكن أعرف شخصا واحدا في غزة، وكانت المفاجأة الموافقة على التصريح، وكان ذلك محور تساؤل الكثيرين، فالموافقة من الحكومة الإسرائيلية على هذا التصريح شئ مستحيل ولكنه حدث، وهكذا أخذت أعبث بالتصريح وأنا أتطلع إلى ساعة الرحيل وذلك بعد أن أقنعت أمي والتي كانت دموعها تنهمر طوال الطريق، ورغم حزني لذلك إلا أنني كنت اعتدت على مثل هذه المواقف فكنت أداعبها قائلا – "حد قلك تجوزى واحد فلسطيني".

في الطريق إلى رفح

والحمد لله امتلأت المقاعد الثلاثة، كان الجميع متجها إلى العريش أو رفح لقضاء العطلة الشتوية أو للعمل، والبعض متجه إلى غزة طلاب بكلية الطب برومانيا، ومدرس كان في دورة بالولايات المتحدة، وبعض التجار وما أن بدأت السيارة بالتحرك حتى بدأت بالدعاء وقراءة القرآن وأذكار الصباح، ففي الواقع لم تكن لدى ادني فكرة عما ماذا يمكن أن يحدث خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة.

جلست في مؤخرة السيارة على يساري طالب جامعي ذاهب إلى العريش لزيارة أخيه والاستمتاع بمناخ العريش وبحرها والذي كانت فاجأة كوني فلسطيني فلهجتي مصرية 100% حتى انه قال لي أني مصري اكثر منه ولكنني رددت عليه قائلا – "لا مصري ولا فلسطيني .. مسلم وبس والباقي خس".

وكان على يميني مدرس فلسطيني كان في زيارة للولايات المتحدة، وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث فالطريق إلى غزة يأخذ أكثر من سبع ساعات كاملة داخل تلك السيارة، وفي الواقع كان حديثه عن الولايات المتحدة ممتعا فقد بدأه بطابور الغذاء داخل الجامعة التي كان يدرس فيها وكيف بدأ يتحدث مع أحد الواقفين في الطابور ثم اكتشف أنه عميد الكلية بل إن نائب الرئيس الأمريكي نفسه كان معهم في الكلية

وكان ينادونه باسمه مجردا دون ألقاب أو ما شابه، وختم حديثه قائلا: "هذا ما جعلهم يتفوقون علينا فنحن لسنا ضعفاء ولكنهم أقوياء بضعفنا" ثم اخذ يحدثني عن غزة وأحوال المعيشة هناك وأخفيت عنه كوني ملازم أول فقد أخبرته بأنني ذاهب للبحث عن عمل هناك مثلي مثل كثيرين عادوا إلى غزة مع من عادوا.

ولم يكن هناك ما يميز رحلتنا طوال الطريق إلى رفح ولكني كنت سعيدا بعبور قناة السويس لأول مرة على المعدية وتخيلت أبطال أكتوبر وهم يعبرون هذه القناة تحت وابل من النيران واستحضرت المعركة فهذه قناة السويس وهذه مياه البحر ولكن أين الأبطال؟ كان هذا هو السؤال الذي أبحث عن إجابته في حديث صامت، لقد مات الأبطال من أجل أن يجعلوني أعبر الآن على هذه المعدية في هدوء وطمأنينة عندما عبروا كنت ابلغ من العمر عام واحد وتمنيت في هذه اللحظة أن أكون من الأبطال الذين يعبرون إلى الأقصى ليمر من بعدى إليه ويصلوا هناك آمنين مطمئنين أفقت من تأملاتي على أصوات بائع الجرائد وتطلعت إلى عناوين الجرائد التي كانت كعادتها مملة ومتكررة ومحبطة وهنا صاح طالب الجامعة الذي يجلس بجواري

- حد يا بني يسيب القاهرة الجميلة ومنظر النيل بالليل والهواء اللي يرد الروح ويروح لغزة .. تقدر تقولي لى فيه أيه في غزة مش موجود في مصر

فضحكت وأنا أرد مداعبا - فيها يهود .. في القاهرة يهود زى اللي في غزة؟

وضحكنا كلانا، ولكن المزاح لم يستمر طويلا فبعد فترة نفسي وجدت نفسي أعبر البوابة المصرية بعد أن أتممت إجراءات العبور واستقللت الحافلة إلى البوابة الأخرى.. البوابة الإسرائيلية.

لأول مرة مع الإسرائيليين

البوابة كان مكتوبًا عليها باللغة العربية والعبرية "أحترس.. البوابة مكهربة" وصعد إلى الحافلة رجل أشقر، كانت هذه أول مرة ألتقي بها بإسرائيلي، وتطلعت إلى العلم الإسرائيلي، وبدأت أشعر بجو من الإثارة والقلق فالرجل لم يفعل شيئا سوى التطلع إلى وجوهنا وإلى جوازات السفر التي رفعناها ليراها دون أن ينطق بكلمة واحدة، ثم هبط مرة أخرى وتحركت الحافلة لتعبر البوابة وهناك بدأنا في عبور بوابة إلكترونية لاكتشاف الأسلحة وأخرجت ما معي من عملات معدنية ثم جلست بعد أن سلمت أوراقي إلى موظف الاستقبال والذي كان فلسطينيا هذه المرة وأكثر ما أدهشني أن معظم العاملين من الفتيات الإسرائيليات باستثناء عدد محدود جدا من الرجال.. وعبر الجميع إلى البوابة الأخرى البوابة الفلسطينية أما أنا وشاب آخر فانتظرنا وتم مناداتنا بالاسم وبدأت أشعر بالقلق واكتشفت أن الشاب الآخر يحمل نوع مميز من الكاميرات وقد حاروا في نوعها وما أن اكتشفوا أنها كاميرا حتى أعادوها إليه وانصرف، أما أنا فكانت حقيبتي مغلقة بالقفل وطلبوا مني فتحها ففعلت وجاءتني فتاة وسألتني بالعربية - معاك سلاح

فابتسمت وأنا أقول: معايا مرايا

فردت بتعجب : مرايا !!

فأشرت برأسي: نعم.. مرايا

قلتها وأنا اخرج المرايا من الحقيبة لأريها وجهها فيها، فضحكت عندما اكتشفت أنني أمزح ثم أخذت تلعب مع زميلاتها بها، فقلت في نفسي "البنات دول شكلهم مش يهود دول أكيد بنات من أوربا مش لاقين يأكلوا فجم لإسرائيل" وهنا دخلت سيدة تبدو على ملامحها الغباء والصرامة وكان غضب الله في وجهها فقلت هامسا - أكيد دي صهيونية فعلا

واستمرت الفتاة في الحديث معى بالعربية بصعوبة فطلبت منها الحديث بالإنجليزية إذا كان ذلك أسهل لها، ففعلت وما أن انتهت من إجراءات التفتيش حتى قمت بإعادة محتويات الحقيبة، ولكن هيهات فكيف لي أن أعيد ترتيب تلك الحقيبة كما فعلت والدتي بالقاهرة منذ ساعات؟! وبصعوبة قمت بحشر المحتويات وتبقت المرآة فلم أبال وطلبت منها أن تحتفظ بالمرايا فرفضت فقلت مازحا: يا ستي أنت سرقت البلد كلها حتيجي على المرايا.

لم ترد علي، ولا أدرى هل فهمت ما قلت أم لا فقد قلتها بالعامية المصرية، وبعد دقائق وجدت نفسي داخل غزة بعد عبور البوابة الفلسطينية وهناك وجدت المدرس ينتظرني وقام مشكورا بتنظيم حقيبتي من جديد وجلسنا نتحدث وأخبرته عندها بأنني ملازم بالجيش الفلسطيني فأخبرني بأن العمل داخل السلطة عمل بلا آفاق فالسلام بيننا وبين إسرائيل

ليس سوى وهم وكان الرجل محقا ولكني لم أرد عليه فقد قمت بإخراج خيار من حقيبتي وبدأت في الأكل وأعطيته بعضا منه، بينما كنا ننتظر أن يكتمل التاكسي الذي سيقلنا إلى مدينة غزة، وسخر الرجل مني لأني أحمل خيار واعتبره عملا شاذا، ولكن ما هي إلا لحظات حتى أنضمت إلينا فتاة فلسطيني تدرس بالولايات المتحدة وأخرجت بدورها خيار من حقيبتها فضحكت وأنا أقول له " مش أنا الوحيد اللي بياكل خيار"

ولكنني شعرت بالحرج فالجميع ودودون للغاية ولكنهم يتحدثون بلهجة مختلفة عني، وخفت أن يكون أحدا متضايق مني لاختلاف لهجتي فقد عشت في ليبيا ثلاث سنوات وعانيت من مسالة اختلاف اللهجة كثيرا ولكني كنت دائما أقول أتحدث كما أشاء فأنا في النهاية مسلم.

وبعد دقائق كان التاكسي يسير بنا متجها لمدينة غزة ووكانت النقود التي معي كلها مصرية ولكن السائق لم يبال بنوعية النقود فداخل غزة العملة هي الدولار والدينار الأردني والشيكل الإسرائيلي فلا باس إذن بالجنيه المصري ونزل الجميع ولم يتبق سواى أنا والفتاة التي عرفت أن اسمها ليلي وهي طالبة بكلية السياسة بالولايات المتحدة، وتعجبت كيف تسافر وتدرس لوحدها ولكنها أخبرتني أن هناك أسرة تقوم على رعايتها هناك، وتضايقت من مسألة سفرها

للولايات المتحدة لدراسة السياسة فأخبرتها أن سياسة أمريكا معروفة ولا تحتاج لدراسة كل هذه السنوات، ويمكن ان ألخصها لك بكلمة واحدة "بلطجة". كان الأفضل لها لو درست الطب أو الهندسة أو العلوم أو أيا من العلوم الحديثة. وأمتد بنا الحديث فأخبرتني أنها ترغب في الحصول على الماجستير ثم الدكتوراه رغم أنها كانت لا تزال في السنة الأولى، وشعرت بعاطفة نحوها فهي أول فتاة فلسطينية ألقاها داخل الأرض المحتلة خاصة أنها كانت جميلة وزادها الحجاب جمالا فالسفر والدراسة والولايات المتحدة لم تنسها أنها فتاة مسلمة وبطبيعة الحال لم أكن أجلس إلى جوارها بل كنت أجلس بالمقعد الأمامي لمقعدها وتعجبت كيف تطورت عاطفتي نحو هذه الفتاة في أقل من 15 دقيقة إلى الرغبة في الاقتران بها ربما يكون جو الإثارة الذي أعيشه فهذه أول مرة لي داخل فلسطين المحتلة وها أنا أستقل تاكسي إلى مجهول لا أعرفه والأعلام الفلسطينية والإسرائيلية ترفرف حولي وسيارات الأمن المشتركة حولنا وبدأت أشعر بالفعل أنني أصبحت داخل فيلم سينمائي ووجدت هذا يجول في خاطري ما هو دوري تحديدا داخل هذا الفيلم؟! ولكن ليلي تلك الفتاة الفلسطينية الجميلة كانت تستحق دور البطولة بكل تأكيد ربما لأنها كذلك وربما لأنني أحببت أن تكون كذلك. وانتبهت إلى السائق الذي كان يسألني عن وجهتي فقلت : مخيم جباليا عند جهاد حسين .

أما ليلى فقالت : محل النابلسي بحي الرمال

ونزلت قبل ليلى ولم انسي أن احييها قائلا: سلام يا دكتورة ليلى فابتسمت وخفضت رأسها في خجل فربما كانت المرة الأولى التي أنظر في وجهها مباشرة منذ أن التقينا وتركني السائق في مكان ما بعد ان أوصى سائق آخر ولحسن الحظ كان يعمل بالشرطة فسألته عن بعض زملائي، وبالفعل تعرف على بعضهم فطلبت منه أن يخبرهم أني موجود بغزة ولم يتركني السائق حتى وصلني إلى بيت جهاد حسين وبعد أن أطمئن تركني وانصرف ولم أنس أن أكد عليه أن يخبر بزملائي بوجودي داخل غزة بدأت أشعر بشيء من السعادة فأهل غزة ودودون للغاية وها أنا أصل إلى منزل جهاد بسهولة والذي ما إن دخلته حتى نظرت إلى الساعة المعلقة بالحائط وكانت أول أسئلتي: أين المسجد؟.

قضيت الليلة الأولى في منزل جهاد حسين الذي كان يعمل بالرقابة المالية بمدينة غزة، وفي اليوم الثاني صحبني إلى مركز القوات الفلسطينية والذي كان يسمي "كارني" بالقرب من معبر المنطار وهذا المعبر معبر للشاحنات الكبيرة والناقلات، وليس لعبور الأفراد، وهناك التقيت ببعض من زملائي من الكلية وكانت سعادتي بذلك كبيرة وقابلني الجميع بترحاب كبير ولكنني كنت قلقا فخفت إلا يتم تسجيلي خاصة أنني ليست لدى واسطة أو علاقات أو حتى عائلة في

غزة فعائلة الكسيح أساسا من مدينة حيفا وعرفت بعد ذلك أن الكسيح كان أحد صحابة سيدنا عيسي ربما يكون من الحوارين الذين ذكرهم الله جل وعلا في القرآن الكريم وكنت أفتخر بذلك كثيرا.

وبدأت أتجول في المكان الذي كان يتكون من طائرتي هليكوبتر معطلتان وملعب لكرة السلة والكرة الطائرة إلى جانب مخزن كبير للأطعمة ومطبخ وقاعة للضباط يوجد بها تلفزيون ودش إلى جانب غرف الضباط، وصحبني أحدهم إلى غرفة وطلب مني أن أستريح قليلا حتى حضر القائد ورحب بي وكان رجلا ظريفا في الخامسة والثلاثين من عمره عرفني على نفسه باسم أبو ناهي، وهذه الأسماء تعود إلى بداية العمل الثوري حيث كان جميع من يلتحق بالعمل الثوري يحصل على اسم حركي وينسي تماما اسمه الأصلي ولكن بعد اتفاق أوسلو أصبحت الأسماء مجرد مزحة ومعظمنا كان يستخدم أسمه الأصلي وبعد أن تعرفت على معظم الضباط الذين حضروا للترحيب بي والذين كانوا بحق مزيجا غريبا من اليمن والجزائر والأردن ومصر وروسيا وباكستان وغير ذلك، تجمعوا جميعا من كافة البلاد إلى وطنهم الأصلي فلسطين كان الموقع عامرا بلهجات مختلفة وشخصيات مختلفة ومتباينة غاية التباين ولكن أكثر ما أدهشني ثقافة بعض الجنود، فرغم أن بعضهم لم يكمل تعليمه إلا أنه يتمتع بوعي وثقافة علمية على مستوى راق وكنت أسألهم عن ذلك حيث تعود ثقافة بعضهم إلى سنوات السجن

والتعذيب، فكان لا يجد سوى مكتبة السجن ليقرأ منها ما يشاء وكانت اتفاقية غزة أريحا فرصة لهم للعودة للدراسة خلال عملهم بالشرطة.

ولكن أكثر من تعجبت لأمره مهندس الطيران يسمي "سامي" من فلوريدا بالولايات المتحدة وسألته أتركت فلوريدا لتأتي إلى غزة؟ هل هي وطنية؟ ولكن مصطلح وطنية كان غير صحيحا بل مصطلح "حمورية" هو الأكثر دقة هكذا أخبرني فقد اعتقد أنه سوف يصبح وزيرا للطيران بمجرد وصوله إلى غزة، ولكن هذا لم يحدث وفي الواقع ظلت قصته غامضة بالنسبة لي ولم أحاول أن اكتشفها بل اكتفيت بالحديث معه عن يومياته بولاية فلوريدا بأمريكا وهي ولاية ممتلئة بالأغنياء حتى انه من الصعب الحصول على تاكسي هناك وحصل بصعوبة على رخصة للقيادة بعد أن فشل في اختيار القيادة مرتين ولكن لم يكن هذا أغرب من لقيت فقد كانت مشكلة أخرى فعندما نقلت حاجياتي إلى الغرفة التي سأنام فيها أخبرني أبو لؤي -وهو ضابط الأمن بالموقع - أنني سأقيم مع مروان وكلما سألت أحد المرحبين عن مروان نظر لي في قلق ثم يقول - ستقيم مع مروان .. ثم ينظر لي كما لو كنت أستعد لحبل المشنقة ثم ينصرف باستثناء واحد ضحك وهو يقول لا تخف شيئا سوف نحدثه حتى لا يحدث شئ وهنا ازددت قلقا فمروان هذا لم يظهر حتى الآن وازداد قلقي وأنا أرى بعض الأدوات الرياضية ملقاة بالغرفة وأصبح واضحا لي أنني في طريقي إلى

مشاجرة حقيقة بعد دقائق، ورغم مزاولتي للرياضة بشكل مستمر إلا أنني كنت غير مستعد لتلك المعركة التي من الواضح أنها ستكون غير متكافئة فالبرغم من أنني لم أرى مروان هذا قط إلا أن نظرات الآخرين أكدت لي أن المعركة ستكون غير متكافئة لصالح مروان بالطبع.

وما أن رأيت مروان حتى فهمت سبب نظراتهم، فبنيته تشبه إلى حد كبير بنية المصارعين رغم أن جسمه ليس رياضيا بالدرجة الأولى إلا أن هذا لا يمنع من انه يمتلك بنية قوية رغم قصر قامته، ولكن لم تكن هذه هي المشكلة الأساسية بل كان أسلوب حديثه فبدلا من أن يرحب بي مثلما فعل الآخرون فوجئت به يسألني عما إذا كنت سأقيم معه في الغرفة فلما أجبته بالإيجاب أخبرني بأنه يحب النظافة إلى حد كبير ويرفض بشدة دخول أي فرد بالحذاء إلى غرفته أو التدخين داخلها فلما أخبرته بأنني لا أدخن اطمئن لذلك وبدأ العلاقة بيننا تأخذ اتجاها آخر.

وفي الواقع مروان شخصية ظريفة وكريمة فكان لا يبخل على بأي شيء من أدواته الرياضية أو أدوات إعداد الشاي وغير ذلك أو ما لديه من كركديه الذي كنت أحبه بشدة، إلا أنه كان يقوم بالتنظيف بشكل مبالغ فيه وربما يقوم بالتنظيف ثلاث مرات يوميا ويتباهى بذلك وأحيانا يختار أوقاتا غير مناسبة لتنظيف الغرفة وربما قام بتنظيفها بسائل الكيروسين

(السولار) بهدف طرد النمل منها ولكنه في الواقع نجح في طرد النمل وطردنا نحن كذلك؛ فالغرفة أصبح من المستحيل الإقامة بها واضطررنا للمبيت خارجها ليلة كاملة حتى تذهب تلك الرائحة الشاذة ولم اغضب مما يفعل بل كنت أبادله أسلوبه فأرغمه على الاستيقاظ للصلاة في الفجر وإذا رفض قمت بدوري بالتنظيف وإخراج سريره وهو نائم عليه إلى خارج الغرفة..
وكانت من ضمن عاداته الغريبة تشغيل المروحة رغم برودة الجو طوال الليل وكان هذا يزعجني بشدة ولكني اعتدت في الجيش أن أتكيف على كافة الأحوال فكنت بدوري أجعل المروحة على أعلى درجاتها واخبره بأنني لا أستطيع النوم إلا هكذا وهكذا استمرت العلاقة بيننا وأصبحت أنا ومروان صديقين حميمين وأستمر مقيما معي في الغرفة حتى قام بخطبة فتاة وانتقل للمبيت خارج الموقع.

داخل الجامعة الإسلامية

في الأيام الأولى لي بغزة كانت الحياة مملة جدا فأنا لا أعرف أحدا ولم أجد أحدا من زملائي وحتى من وجدتهم كان مشغولا لتدبير نفقات الحياة فكلا منهم أصبح لديه أسرة ينفق عليه خاصة أن الحياة داخل غزة مكلفة للغاية واجتهدت في استغلال الوقت حيث أصبحت مؤذن المسجد، والتمارين الرياضة التي كنت أمارسها مرتين يوميا مرة بعد صلاة الفجر وأخرى بعد العصر وأحيانا داخل الغرفة مع أدوات مروان الرياضية إلى جانب القراءة من مكتبة هاني العلى أحد رفقائي بالموقع والذي التحق بالجامعة الإسلامية بغزة لدراسة الشريعة وأصاب ذلك هوي في قلبي فقد كانت لدى رغبة كبيرة في الدراسة والالتحاق بكلية العلوم حيث كان يسمونني عاشق الفيزياء، لذا اتجهت إلى الجامعة الإسلامية والتي كانت نموذجا رائعا للدراسة فالجامعة مقسمين قسمين قسم للطلاب وللطالبات ولا مجال للاختلاط بينهما فكلا له دراسته ومحاضراته الخاصة المنفصلة ولا مجال لرؤية فتيات الجامعة الإسلامية إلا أثناء خروجهن من باب الجامعة إلى موقف السيارات، وفي الواقع لم أر في حياتي هذا الكم الكبير من الفتيات المحجبات حجابا شرعيا إلا في هذا المكان وكان لهذا المشهد أثرا كبيرا في نفسي خاصة أنني شاهدت الجامعات الأخرى كالمفتوحة والأزهر وكانت لي ذكريات كثيرة داخل جامعة القاهرة وحتى الزملاء

بالموقع قالوا لي عندما أخبرتهم برغبتي في الدراسة الجامعية "إذا كنت تريد الحب والهزار فأبتعد عن الجامعة الإسلامية إما إذا كنت تريد دراسة حقيقة فعليك بها" وتذكرت ليلى فتاة السيارة ولكن حجاب ليلي بالنسبة لهم حجاب أمريكي وبدأت التجول داخل الجامعة التي كانت تمتلئ بالحدائق المنظمة إلى جانب مسجد كبير ومطعم، وراق لي أن أشترى بعض المشروبات الغازية وما أن شربته حتى أدركت أن ما أشربه في مصر شيئا آخر واتجهت إلى الإدارة واكتشفت أنه لا مجال للتسجيل للدراسة خلال هذه الأيام ولكن توجد دورات صيفية واخترت دورة تصميم صفحات الإنترنت وسجلت بها وكنت انتظر أول الشهر لاستلام راتبي ولكن كانت هناك مفاجأة بانتظاري فأنا لا أستطيع أن أتقاضي راتبي كاملا بل سأتقاضى ما يعرف براتب مقطوع وذلك لأنني لست متزوجا هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لأني لا أحمل جواز سفر فلسطيني بل أحمل وثيقة مصرية مكتوب عليها "لاجئ فلسطيني" في الواقع لم أفهم هذه القوانين الغريبة ولم أحاول أن أفهم بل اتجهت إلى زميلي جهاد حسين بالرقابة المالية وسألته عن ذلك فأخبرني انه سيحاول أن يجنبني ذلك القانون ولكنه لم يستطع وهكذا تم تسجيلي بالسلطة الفلسطينية ملازم أول براتب مقطوع وهذا يعني استحالة العيش وتكوين أسرة أو حتى الاستمرار في دراسة وطوال فترة التصريح لم

أجد حلا لهذه المشكلة لذا تركت الأمر لله ليقضي أمرا كان مفعولا.

وداخل الموقع تصادقت مع خالد دراز ضابط بالإدارة والتي لم يكن بها سوى جهاز كمبيوتر واحد وكنت أساعده في العمل عليه وعندما عرفوا بمهارتي في التعامل مع الكمبيوتر أصبحت أعمل داخل الإدارة كثيرا وقتما أشاء صباحا ومساءا وهذا ساعد بعد ذلك على ترشيحي لدورة مع الشرطة الدنماركية في النظم الإدارية ودونما ذلك كانت الحياة داخل الموقع مملة فلم يكن لدينا نفعله في المساء سوى مشاهدة مباريات كأس العالم بفرنسا وما أن تنتهي المباراة حتى يعود جو الملل فليس هناك ما نفعله سوى الثرثرة فيما يفيد وما لايفيد حتى لا تجد ما تتحدث فيه وبينما كنت أصلي العشاء ألتفت لأجد بجواري أحمد العطلة وهشام الطيب وهم زميلاي بالسلاح أثناء وجودي بليبيا وفرحت بهم بشدة خاصة أن كلاهما حاصل على البطولة العربية للكونج فو المركز الثاني وتذكرت هنا محمود الشريف مدرب الكونج فو المصاب بشلل الأطفال ومع ذلك حصل على بطولة الجمهورية بمصر للكونج فو خمس مرات متتالية وقد رأيته يقوم باستعراض في إحدى دورات الصاعقة ولكني حزنت لما عرفت أن الإسرائيليين قتلوه عند معبر يسمي "أيريز" وتخيلته يقف عاجزا أمام أسلحتهم لا يستطيع حتى أن يهرب أو يختبئ وازداد حزني فأحمد وهشام كانا في طريقهما إلى السجن بعد

مشاجرة مع قوات الرئيس وانتشرت إشاعات كثيرة حول هذه الحادثة ولكن في الواقع لم يكن هناك مشاجرة بالمعني فقد حاولت حراسات الرئيس الحصول على الأسلحة التي يحملها هشام وأحمد وهذه تعتبر إهانة في العرف العسكري لذا دافع هشام واحمد بقوة عن شرف السلاح وبالفعل لم تتمكن قوات الحرس انتزاع الأسلحة من بين أيديهم الصلبة وقبل أن يذهب أحمد مع السيارة التي جاءت لتحملهم إلى مكان التحقيق أخبرني بأن أخيه محمد موجود بقوات الحدودية المجاورة لنا وبالفعل ذهبت للسؤال عنه وبدأنا نتبادل الزيارات حيث كان يعمل محمد بقوات الحدودية سائقا وكان محمد يصغرني بسنوات إلا أنه كان كثيرا ما يزورني للاطمئنان علي والغريب انه لم يكن مشتركا في أي نشاط رياضي رغم لياقته البدنية العالية إلا أنه كان كثيرا ما يتفاخر بأخيه أحمد والبطولات التي أحرزها وبعد ذلك أصبحنا نفتخر بمعرفتنا بمحمد العطلة فقد استشهد وهو يحاول إنقاذ محمد الدرة في تلك الحادثة الشهيرة التي تناقلتها وسائل الإعلام وحتى الآن لا أزال أعلق صورته في غرفتي بالمنزل مفتخرا بمعرفتي به.

أما احمد وهشام فكل منهما برتبة رقيب بسلاح الطيران بموقع الأنصار حيث توجد مروحيات الرئيس والتحقا بالدراسة بالجامعة المفتوحة وهناك كانت أول تدريبات الكونج فو داخل غزة حيث اصطحبني هشام إلى هناك بعد أن انتهي التحقيق معهما وبدأت في

التدريب معهم وهناك تعرفت على هيثم الراعي المدير الفني لفريق الكونج فو الفلسطيني وحسن السوسي اللاعب الأول بغزة وصالح وعبد الكريم الزر وغيرهم من أبطال غزة في الكونج فو ولكن التدريب لم يستمر طويلا فقد انتقل الفريق إلى معسكر خاص للتجهيز لبطولة لبنان وهكذا عدت وحيدا من جديد لا أجد ما أفعله سوى الجري بعد صلاة الفجر داخل الموقع المتسع والتطلع إلى السماء وإلى مواقع الإسرائيليين والتي كانت على بعد كيلومترين من موقعنا وربما أقل ولكن لا يمكن كشف الموقع إلا بالمنظار فليس هناك معالم واضحة باستثناء الأبراج العالية خاصة أنهم كانوا يحتلون المنطقة العليا ويتركوا لنا الأراضي المنخفضة حتى يتمكنوا من ضربنا بسهولة إذا أرادوا.

لم يكن هناك شئ سوى قنابل الضوء بالليل لكشف المتسللين وكذلك بعض الطائرات الشراعية الخفيفة وأحيانا بعض المروحيات التي كانت تحلق فوق الموقع لفترات ثم تنصرف وكنت أتساءل عن ذلك فيخبروني أنه تدريب للقوات الجوية الإسرائيلية حتى إذا سقطت الطائرة تسقط على رؤوسنا وازداد الأمر سوءا عندما تم تأجيل دورة تصميم الصفحات وكنت أبحث عن دورة لتعلم العبري ووجدت ضآلتي بمدرسة خالد بن الوليد ولكن للأسف كان موعدها متأخرا مثلها مثل دورة الجامعة الإسلامية وتصادف أن تكون مدرسة خالد بن الوليد بجوار القنصلية المصرية فذهبت إلى

هناك لأقص عليهم قصتي فأنا تصريحي داخل غزة
ينتهي بعد 7 شهور حسب القانون الإسرائيلي وتصريح
العودة إلى مصر ينتهي بعد عام حسب القانون
المصري وفي حالة خروجي وعدم عودتي إلى غزة من
جديد أفقد عملي حسب القانون الفلسطيني أعتقد أن
حل المعادلات الفيزيائية أسهل بكثيرة من تلك
المعادلة الغريبة ورغم التساهل الذي تقدمه القنصلية
المصرية إلا انه لا يستطيع تجاوز ذلك الشرط
الأساسي فلابد من عودتي قبل عام وإلا ضاعت
إقامتي في مصر وهكذا استمرت المعادلة الصعبة دون
حل ولم املك سوى الانتظار وتبادل الأحاديث مع
زملائي مساءا ونحن نتطلع إلى السماء بعد أن فرشنا
أرض الموقع بسجادة جلسنا عليها جميعا فعددنا في
المساء لم يكن يتجاوز العشرة أما في الصباح فالعدد
يصل إلى أربعين وعلى كل حال كان موقعا متميزا
بالنسبة للخدمات على تنوعها الشيء الوحيد المخيف
بهذا الموقع أننا أقرب ما نكون إلى الإسرائيليين حتى
قائد الموقع كان يخبرنا بأنه من السهل عليهم الدخول
إلينا وقتلنا جميعا فالموقع لا توجد به أسلحة إلا
سكاكين المطبخ وفي الحقيقة ليسوا في حاجة إلى
ذلك فيمكن ضربنا من بعيد بالمدافع وينتهي الأمر
فالموقع مفتوح ولا توجد به أي تحصينات وكانت
غرفتي على حافة الموقع وكثيرا ما كنت أتطلع إلى
الموقع الإسرائيلي الذي لا تبدو منه أي شئ وكأنه
خاليا وبدأت أشعر بالملل فقررت اكتشاف المنطقة

المحيطة حول الموقع فخرجت قبل صلاة العشاء وما ان وصلت إلى الطريق العمومي والذي كان على مسيرة 5 دقائق من الموقع حتى سمعت صوت الآذان فتتبعته واكتشفت مسجدا قريبا واسعا مكتوب عليه فتحي الشقاقي كنت اعرف أن الشقاقي أحد شهداء الانتفاضة ولكن لم أعرف الكثير عنه شخصيا وبدأت في الانتظام بالصلاة في هذا المسجد الذي كان مؤذنه أبو شادي رجل في الستين من عمره ولكنه يتميز بقوة بدنية واضحة وكذلك كنت ألاحظ شاب صغير في الـ 14 من عمره كان كثيرا ما يحضر للصلاة وفي البداية لم نتبادل الأحاديث بالاستثناء السلام وعندما كنت أعود إلى الموقع كنت أجده خاليا تماما فالضباط بالموقع بدءوا يتزوجون واحدا تلو الآخر حتى أصبحنا خمسة تقريبا وكان لكل واحد حياته الخاصة المنفصلة باستثناء هاني العلي الذي فتح لي باب مكتبه أقرا منها ما أشاء واتخذت من الموقع الواسع صالة رياضية فكنت أتمرن في كل مكان وعلى كل شئ حتى المروحيات المخربة كنت أتخذ من المروحة الخلفية والتي يبلغ طولها مترين تقريبا هدفا أقوم بتوجيه الضربات إليه ولكن التمرين منفردا ممل للغاية لذا قررت أن أطلب من هذا الشاب بالمسجد أن يتدرب معي واستشرت الضباط في ذلك ولكنهم نصحوني بألا أفعل فأهل غزة عاشوا سنوات طويلة من الاحتلال وربما تكون معاملتهم غير ودودة ولكني لم أهتم بما قالوا وفي المساء كنت أصلي العشاء بجوار الشاب

الذي عرفت أن اسمه نبيل فقلت له "تحب تلعب كونج فو "

فابتسم نبيل وهو يشير برأسه مرحبا فأخبرته بأن يحضر إلى الموقع مع بعض زملائه للتدريب معي، وتركته وانصرفت إلا أنني وجدته يلحق بي مسرعا ويسألني عن الأشياء التي سأدربه عليها فقمت بعمل ضربة تعرف بالضربة الدائرية مرت من فوق رأسه بسرعة جعلته يبتسم ويؤكد لي أنه سوف يحضر وبالفعل في اليوم التالي حضر نبيل منفردا فلم يتمكن من إحضار أحد وتدرب معي وقوبل ذلك بانتقاد شديد من الضباط بالموقع وكان لبعضهم تعليقات قاسية ولكن بعضهم نصحني بالابتعاد عن هذا النوع من التدريب حتى إذا تعرض الشاب للأذى إلا يقتص منك أهله وبعضهم قام بتهديدي ولم أكن في حاجة إلى المزيد من المشاكل فذهبت لصلاة العشاء في اليوم التالي وأخبرت نبيل بالا يحضر ففوجئت به يسألني: وأين سيكون مكان التدريب الجديد؟. كنت أتحدث معه في مؤخرة المسجد التي كانت أشبه بالاستراحة بها حديقة صغيرة بجوار حمامات المسجد وفكرت قليلا ثم قلت له : "إيه رأيك التمرين يكون هنا؟"

فرحب بشدة وبدأنا في التدريب. لم أكن أمتلك الكثير من المهارات في تلك اللعبة ولكني كنت أجيد ما تعلمت إلى جانب ما تعلمته من حسن السوسي بالجامعة المفتوحة ولم يكن لدينا أي أجهزة فقط

المكان الذي نحن واقفين به وحركات السويدي ولاحظ وجودنا ثلاثة شباب فجلسوا يتابعوننا وكان أحدهم ذو بنيه عظيمة رغم صغر سنه فتقدم مني في تحدى في الواقع كنت خائفا منه إلى حد كبير فإذا هزمني أصبح موقفي محرجا أمام نبيل رغم أنني أخبرته بأنني مجرد لاعب عادي ولست أستاذا في هذه اللعبة إلا أنني كان ينبغي لي أن أسقط هذا الشاب حتى أنال ثقته لذا اضطررت إلى قيام بحركة غبية بلوى رقبته وإسقاطه أرضا عندما طلب الاشتباك معى إلا انه لم يغضب وطلب الاشتراك في التدريب معنا وهكذا أصبحنا ثلاثة أنا ونبيل والثالث ذو البنية العظيمة والذي عرفت ان أسمه شادى وانه أبن مؤذن مسجد الشقاقي "أبو شادي الغرابلي" وهكذا أصبحنا أصدقاء رغم اختلاف الأعمار، ولكن أهم من ذلك أنني كنت أرغب في تنمية العلاقة بين شادي ونبيل حتى يصبحا صديقين إلى أبعد الحدود والحمد لله ذلك حدث بالفعل رغم اختلاف كلا منهما عن الآخر فنبيل طالب متفوق بدراسته والأول باستمرار إلى جانب وعيه الديني ومحافظته على الصلاة وحفظ القرآن أما شادي فلم يكن متفوقا إلا أن أسرته كانت تستخدمه في أعمال كثيرا مما أثر سلبا على دراسته إلا أنه كان ينجح باستمرار وكنت أذاكر معه أحيانا ونبيل بطبيعته هادئ لا يتحدث كثيرا على عكس شادي الذي قليلا ما يسكت ورغم تحذير الضباط لي بالموقع من أهالي غزة وخاصة حي الشجاعية وخوفهم على من حدوث مشاكل معهم إلا

أن الأمر أتخذ اتجاها عكسيا فقد اندمجت مع الأهالي بشكل كبير وساعدتني لهجتي المصرية على الدخول إلى قلوبهم فكان الأهالي يحضروا ليشاهدوا التدريب الذي كان مستمرا بين صلاة المغرب والعشاء وانضم إلى الفريق مصعب وفداء ابنا عم نبيل وأخوه مؤمن وشادي الصغير ابن عم نبيل أيضا وكلهم من أسرة العابد أما شادى الكبير فكان من عائلة الغرابلي.

وتحير الناس في أمري ما الذي يدفعني إلى تدريب هؤلاء الصبية وكثيرا ما سألوني عن ذلك فكنت أرد ببساطة أنني أحب هذا العمل وأحب هؤلاء الشباب وأريد أن أجمعهم معا أما أثناء التدريب فكنت أخبرهم بأن الإسرائيليين سوف يهاجموننا يوما ما ويجب أن نكون مستعدين بكل الوسائل الممكنة وحاليا ليس أمامنا سوى الكونج فو ورغم اندماجي السريع في مجتمع الشجاعية حتى أنني بدأت أزور بعضهم في بيوتهم خاصة أبو شادي مؤذن المسجد إلا أن عدد الفريق لم يزد حتى ذلك الوقت عن سبعة وكان عددا مناسبا بالنسبة لمساحة المكان خلف مسجد فتحي الشقاقي حيث توجد حديقة صغيرة كنت أسميها حديقة الشقاقي حتى بدأ منتخب الشرطة في التدريب من جديد واصطحبت الأولاد أولا إلى نادي الأهلي بغزة حيث يقوم على التدريب حسن السوسي الذي كنت اتصل به هاتفيا وقمنا بعمل تدريب مشترك معهم وأظهر الأولاد لياقة عالية أمام فريق الأهلي للكونج فو واشتبكوا معهم في مباراة ودية باستثناء شادي الكبير

الذي اشتبك معه حسن السوسي شخصيا ورغم سعادة الفريق بتلك التجربة فإن المكسب الحقيقي كانت أواصر الثقة التي أصبحت بيني وبين هؤلاء الشباب.

وتعجب كثيرين كيف يخرج معي هؤلاء الشباب وأنا غريب عنهم إلى مكان يجهلونه خاصة أن غزة كانت محتلة لسنوات طويلة مما جعل الناس تكتسب صفة عدم الثقة في الآخرين، واصطحبت الشباب مرة أخرى إلى إدارة الشرطة الفلسطينية حيث صالة الكونج فو الضخمة لقوات حفظ النظام وشاهد الأولاد أبطال غزة والعرب في الكونج فو أسلوب الساندا، وأظرف ما حدث دخول عميد الشرطة إلي الصالة وبطبيعة الحال كان لابد للجميع أن يقف يعطي التحية ووقف كل من في الصالة ما عدا أنا وفريقي الصغير ونظر العميد وأبتسم ثم حيي الجميع وطلب من جميع أفراد الشرطة أن يمارسوا تلك اللعبة .

ورغم استمتاع الشباب بوقتهم والضحكات والقفشات وجو المرح الذي قليلا ما يجدونه فإن هذا لم ينسهم أن يجتمعوا للصلاة كلما آذن المؤذن بل ان شادى ذهب للآذان عندما اقتربت صلاة العشاء حيث قضينا عدة ساعات داخل صالة الكونج فو بإدارة الشرطة وكدنا أن ننسي مؤمن أخو مصعب الصغير والذي لا يتجاوز الأربعة سنوات وبحثنا عنه لنجده واقفا في منتصف البساط الواسع المخصص للمباريات يشاهد حسن

السوسي الذي كان يقوم باستعراض لأسلوب يعرف باسم "الشمالي" وبدأنا نصيح عليه إلا أنه كان في عالم آخر لا يرى فيه إلا حسن السوسي الذي أصبح محبوبا لدى جميع الشباب ولم يفق مؤمن من عالمه إلا عندما أصبح حسن مواجها لنا عندها التقت عينيه بنا وضحك وهو يسرع نحونا لنعود إلى حي الشجاعية وكلا منا يحمل حكاياته ليرويها إلى أقرانه وفي اليوم التالي فؤجئت بوجود ما لايقل عن 40 شابا يريدون ممارسة الكونج فو رغم سعادتي بذلك فإنها كانت ورطة حقيقية خاصة أن "أبو شادي" بدأ يتضايق من تجمع الشباب في المسجد بهذا الشكل.

شباب الشجاعية "وحوش"

في بداية تجمع هذا الكم من الشباب حولي حاولت معرفة "الخواف" بينهم لأن مثل هذا النوع لابد من انتزاع الخوف من داخله قبل البدء في التدريب وأثناء التدريب، لذا طلبت من الجميع عمل ما يعرف بالسقطة الأمامية وفي هذه الحركة يقوم اللاعب بالطيران في الهواء والوقوع على ظهره، واندهشت عندما أدي الجميع الحركة بسرعة وقوة، وبصراحة أحسست أنني أنا "الخواف" وليس هم، وخاصة ان معظمهم كان يتميز بلياقة عالية وثقافة مميزة حتى إنني أطلقت عليهم لقب "الوحوش" ونظرا للحجم الكبير قمت بتقسيم الفريق إلى فرقة مع شادى وأخرى مع مصعب وثالثة معي وقمت أتدرب اكثر من ثلاث مرات مرة منفردا في الصباح بعد صلاة الفجر وثانية مع فريق الناشئين في المساء وثالثة مع المنتخب وكنت أعود لأعلم الشباب في حديقة الشقاقي ما اتعلمه من جديد كل يوم خاصة شادى الذي كنت أتدرب معه في كل مكان حتى ونحن سائرين في الشارع وتطورت العلاقة بيني وبين الشباب فاشترينا جهاز كمبيوتر قديم جدا بـ 80 شيكل أو ما يعادل 80 جنيه إلا أنه كافيا لتعلم بعض مهارات الكمبيوتر الأساسية، واشترينا "مت" للتدريب بدلا من الضرب في الهواء وكذلك مكتبة صغيرة للقراءة وكنا نقوم معا بتنظيف حمامات المسجد وأصبحت حياتي

هؤلاء الشباب وأصبحت لا أعرف ولا أريد أن اعرف سوى حديقة الشقاقي وأصبحت لا أبالي بما يحدث المهم أن أظل معهم رغم ما كان يحدث من إنذارات وتهديدات من زملائي بالموقع حتى أن بعضهم اشتكاني لضابط الأمن في الموقع وطلبني بالفعل للتحقيق ولكنه كان ذكيا فتفهم الموقف خاصة أن التدريب كان يشرف عليه هيثم الراعي مدير منتخب الشرطة للكونج فو لذا اتخذت علاقتي بالشباب شكلا رياضيا بعيدا عن أي شكل آخر قد يثير لعاب الأمن أو شهيتهم للتحقيق.

ولكن التدريب قُدر له أن ينتهي بعد أن أشتكي المصلين من الشباب خاصة شخص يدعي أبو مهند كان يحارب التدريب ويحارب وجودي شخصيا بشدة وبدأ يشكك الناس في نواياي وسمع شادى بعض الكلام منه فجاء ليخبرني وغضبت لذلك بشدة فالشباب كانوا كل حياتي وهذا الرجل يريد ان يخرجني من حديقة الشقاقي وهذا يعني أن أفقد حياتي كلها وعرف الأهالي بأني سمعت ما قاله أبو مهند عني ومن تشكيك في نواياي فاجتمعوا حولي واستضافني أحدهم في منزله واعتذروا لي وهنا قصصت لهم مشاكلي مع التصريح الذي يمتد لسبعة شهور لا غير وعن إقامتي في مصر التي أريد أن أحافظ عليها حيث أن أهلي يعيشون هناك والتي لابد لأحافظ عليها أن أعود بعد سنة وعن الراتب المقطوع الذي أخذه وعن وجوب زواجي حتى أحصل على راتبي الجديد وكان لكلا منهم

مشاكله الخاصة بدوره وكانت كل هذه المشاكل لا حل لها إلا الصبر وانتظار الفرج، ورغم طلب أبو شادى مني وقف التدريب تماما فإن أحد الأهالي ساعدني على تدريب الأولاد في صالة أخرى كبيرة، والظريف أن هذا الرجل كان لقبه أيضا بأبو شادى فكنت أقول من "أبو شادى لأبو شادى" وبالفعل ذهبت إلى الصالة الجديدة والتي كانت لاتبعد اكثر من 30 متر عن حديقة الشقاقي وكان التدريب سيتم في صالة لملعب الطائرة وسعدت بذلك لسعة المكان ولكن قلقت لأنني لا أستطيع أن أقوم على التدريب وحدي بل يجب أن يكون معي لاعب متخصص لذا ذهبت إلى هيثم الراعي وزملائي هشام الطيب وأحمد العطلة وحسن السوسي وطلبت منهم المشاركة في تدريب هؤلاء الشباب ورغم حالة الإحباط التي كانت تصيبهم بعد إلغاء سفرهم للبطولة العربية رغم ثقتهم في قدرتهم في الحصول على مراكز متقدمة مثلما حدث في البطولة السابقة ولكنهم مع ذلك وعدوني بالمساعدة ومع استمرار التمرين بمنتخب الشرطة حضرت إحدى دورات التدريب للكونج فو وسجلني هيثم الراعي في دورة أخرى للتحكيم ولكن لم يقدر لي حضورها فقد تم تأجيلها بدورها إلي ما بعد رمضان وكان شهر رمضان المعظم هو آخر شهور التصريح.

من الحصن الرومي إلى الإسرائيلي

ومنذ الأيام الأولى بغزة وأنا أتابع الموقع الإسرائيلي الذي لم يكن يظهر منه سوى الأبراج العالية وقنابل الضوء في المساء والذي لم يكن يفصلني عنه سوى المنطقة الصناعية أي حوالي أقل من 2 كيلو، وبينما كنت أقرا في مكتبة هاني العلى العامرة قرأت عن الغزوة التي قام أحد المسلمين بقذف نفسه داخل حصن الروم وكبر قائلا الله أكبر ففر جنود الروم بعد أن تخيلوا أن المسلمين داخل الحصن وكنت عندما أتجه إلى المسجد وقت صلاة الفجر أتذكر تلك الغزوة وآذن بقوة وكأني أريد أن أسمع الثعابين الراقدة هناك وتمنيت لو قفزت إلى داخل تلك الحصون وأقوم بالآذان بداخله فمن حصن الروم إلى الحصن الإسرائيلي الأمور لا تختلف كثيرا فعقلية المستعمر واحدة وأن تباينت الأشكال والأزمان والأماكن فالمستعمر أشبه باللص الذي يسرق ويقتل ولكنه دائما يكون في حالة خوف وفزع مستمرة وفي نفس الوقت ليس لديه النية للتضحية من أجل مبادئه لأنه بدون مبادئ أساسا ولذا تكون أساليب العلاج واحدة فمثلما فر الروم من الحصن سوف يفر الإسرائيليون ولكن حتى لو فروا أين المسلمون الذين سيقتحمون الحصن؟ لم أجد إجابة على هذا السؤال ولكني لم

أتوقف عن متابعة ذلك الحصن الإسرائيلي رغم حالة اليأس التي كانت تسيطر على الجميع والتي لم يوقظها سوى فوز إيران على أمريكا في كاس العالم 2/1 حيث كانت مباريات كأس العالم المرفه الوحيد لي خاصة في الأيام الأولى ولا أنسي كميه الصياح التي حدثت عندما فاز الفريق الإيراني في ذلك اليوم وكنت أسخر من نفسي في ذلك اليوم فلم يعد لنا أمل سوى التعلق بمباراة لكرة القدم ولكني لم أدرك أن الأيام القادمة تمهد لي لاقتحام هذا الحصن الإسرائيلي المنيع ولم أكن أدرك أن كافة السبل سوف تكون ممهدة لي لدخول هذا الحصن ولن يكون مطلوبا مني سوى الصياح بكل قوة الله اكبر الله أكبر .

كانت البداية دورة العبري التي كانت بمدرسة خالد بن الوليد وما إن جاء موعدها حتى بدأت أستعد لها فاشتريت الكتاب الخاص بها وبدأت في متابعة النشرة العبرية، وكنت أتمنى أن يوفقني الله بها بعد أن صدمت في دورة أخرى لتعلم الفرنسية، فبعد أن ذهبت مع زملائي من الضباط من سكان الجزائر اكتشفت أن الدورة للناطقين بالفرنسية وجلست ساعتين لا أفهم ما يجري حولي وكنت ألتف إلى زملائي ليترجموا لي ما يحدث ولكن دورة العبري كانت مثالية في البداية فبدأت في تعلم الكلمات الأساسية وما أن انتهت أول حصة حتى اتجهت إلى المدرس وسألته ماذا تعني المسلمين هجموا بالعبري فأجاب - مسلمون تاكفو

وبينما أكمل وأتابع في هذه الدورة ولكن حدث أن جاء موعد دبلومة تابعة لسلاح الطيران كانت تلك الدبلومة مشتركة مع الشرطة الدانماركية وكانت تعرف باسم الفيد باك (Feed Back) أو النصيحة البناءة وكانت عن كيفية التعامل الإداري، وكان موعد دورة العبري ودبلوما الإدارة في نفس الوقت وحاولت المحافظة على الإثنين معا ولكن كان من الصعب التوفيق بدنيا وماديا خاصة مع مواعيد التدريب سواء مع المنتخب أو مع الشباب بحديقة الشقاقي ولكن الذي زاد الأمر سوءا تغير مدرس العبري بمدرس جديد الذي اكتشف أن جميع من في الدورة يتحدثوا بالعبري ما عدا أنا تقريبا لذا اهتم بهم وبدأ يشرح بطريقة أصبح من المستحيل على متابعتها لذا تركت الدورة ولكني لم انسي ما تعلمته من كلمات بسيطة بها خاصة مسلمون تاكفو والتي كانت تترسخ في ذهني كل يوم وأنا آذن لصلاة الفجر بالمسجد، وأنا أتابع الحصن الإسرائيلي، وأنا اقرأ قصة غزوة حصن الروم مرارا وتكرارا... ومع هذه الأحوال كان من الصعب متابعة كل هذا الكم من الدراسات، فيجب على أن أستيقظ من السابعة لأخرج مع سيارة الطعام التابعة لسلاحنا حتى أوفر ثمن سيارة الأجرة المكلف بالنسبة لي مع الراتب الذي أتقاضاه، وأذهب إلى مكان دبلومة الفيدباك بموقع الأنصار حيث أجلس وأتابع مشهد البحر والمروحيتين الراقدتين الخاصتين بالرئيس من ذلك النوع القديم الذي عفا عنه الدهر ولكنها كانت لا تزال

تعمل خاصة أن هناك فريق كامل يقوم على صيانتها وما أن تبدأ المحاضرة والتي تنتهي في الواحدة ظهرا حتى أكون مرهقا وموعد دورة العبري في الثالثة بينما موعد التدريب بإدارة الشرطة في السادسة تقريبا والمفروض أن أتابع التدريب في حديقة الشقاقي لذا تفرغت لدبلوما الإدارة خاصة بعد أن انتهت دورة تصميم صفحات الإنترنت بالجامعة الإسلامية بغزة والتي كانت من أمتع الدورات التي حصلت عليها فالجامعة الإسلامية نموذج للتعليم الحق والعجيب أن تجد نظام تعليم أمريكي بنظام إدارة إسلامية فكان مزيجا رائعا بحق وتصادقت مع دكتور بقسم الرياضيات وكنت أتمني أن أكون طالبا بتلك الجامعة ولكن هذا كان مستحيلا وبلغ بي الحب بهذه الجامعة أنني كنت أذهب لأنام بالمسجد هناك وكأنها أم حانية ألجأ إلى صدرها بعيدا عن مشاكل الحياة التي كانت تعتصرني فالأحوال بطبيعتها لم تكن سعيدة على المستوى الخاص والعام ولكني كنت القي كل هذه الأحزان جانبا وألقي نفسي في حضن أمي مسجد الجامعة الإسلامية حتى أنني أتذكر أنني صليت الظهر هناك أكثر من 12 مرة.

وفي هذه الدورة تعرفت على شاب وعرفت منه أنه من عائلة ليلي فتاة السياسة التي قابلتها على البوابة عند دخولي غزة لأول مرة والعجيب أنني في اليوم الذي سألته عنها اكتشفت أنها في نفس اليوم كانت عائدة إلى الولايات المتحدة ولا أدرى لماذا حزنت في

ذلك اليوم حتى أنني ظللت أتجول في ساحة الموقع الفسيحة حتى ساعة متأخرة من الليل وبطبيعتي عندما أكون متضايقا أكل كثيرا لذا استوليت على مخزون البرتقال وأكلت معظمه وعندما اكتشف ضابط الأمن ذلك وأخبرته أنني كنت متضايقا قليلا لذا أكلت كل المخزون فصاح في الضباط مازحا بألا يضايقني أحد مرة أخرى، وضحكت على دعابته وعدت أتطلع إلى الحصن الإسرائيلي من جديد وأتذكر الفدائي المسلم بغزوة حصن الروم.

من دبلومة الإدارة إلى مزرعة البقر

وجاءت دبلوما الإدارة لتتمم لي ما أفكر فيه وكأنه القدر يخبرني بأنني قادر على هذا الفعل، ففي بداية الدبلومه كنت أعتقد أنها ستكون مملة ولكن على العكس كانت ممتعة للغاية خاصة أن الأسلوب التدريس أعتمد على النظام الحديث وكان المسئول عن هذا التدريب رجل من الشرطة الدانمركية يسمي "تيربون سميث" وفي البداية كنت متضايقا منه فكنت أشك في نواياه نحونا خاصة أنني كنت أنظر إلى المجهودات الأوربية داخل غزة على اختلافها أنه خالية من النوايا الطيبة، بل إن المجهودات العربية داخل غزة لم تكن تعتمد على النوايا الطيبة فالذي يسعى لتحرير فلسطين لا يقيم الكباريهات ويسمح لتجارة الخمور وغير ذلك من الأنشطة التي لم تشهدها غزة أثناء الاحتلال الإسرائيلي؛ فغزة لم تعرف خلال الاحتلال المقاهي والكباريهات وكانت جميع الفتيات ترتدى الحجاب كل هذه الأمور تغيرت بعد ذلك وغير ذلك الكثير، ورغم سحابة العداء التي كانت بيني وبين هذا الضابط إلا أننا أصبحنا أصدقاء بعد ذلك بل أنني اشتريت له سجادة للصلاة وأعطيتها وأنا أدعو لها أن يستخدمها يوما ما وتيربون ضابط بالشرطة الدانمركية في الأربعين من عمره تقريبا وملامحه أوروبية صافية

بشعره الأصفر ووجهه الأحمر وأعجب بي عندما قمت بشرح أحد الموضوعات بالدبلومه فكنت أريد أن أعقد مقارنة بين موقفين فأخبرت المشاركين مع في الدبلومه -وكانوا ضباط من كافة الأجهزة الأمنية- عن موقف حقيقي حدث لي مع مسئول فلسطيني عندما كنت اخبره بمشكلة وطلب مني أن أنتظره 10 دقائق حتى يصحبني لحل المشكلة التي كانت تواجهني وبعد 10 دقائق خرج المسئول ونسي أنني حتى في انتظاره وأنصرف ثم ذكرت لهم نكتة عن لقاء حدث بين سائح إنجليزي قابل رجل هندي في إحدى محطات القطار وسأله: هل تتذكر دائما كل شيء فأجاب الهندي بالإيجاب فسأله الإنجليزي: ماذا أفطرت منذ 20 عاما بالتحديد.

فرد الهندي: بيض

وترك الإنجليزي الرجل الهندي ثم عاد له بعد 10 سنوات وسأله فورا : كيف كان؟

فرد الهندي : مقليا.

وسألت الشباب أيهما النكتة وأيهما الموقف الحقيقي؟! ثم عرضت مشكلة بسيطة على المشاركين وهي نقل كرسي من أول الغرفة إلى آخر الغرفة ولم نفلح في نقل الكرسي رغم انه كان خفيفا ذلك لأن كل من حمل مع الكرسي رفضت أن أسير معه في نفس الاتجاه فكان إذا اتجه يمينا اتجه يسار والعكس وكنت أريد أن أشرح أننا طالما لم نتعاون

ونلقي بالمصالح الشخصية جانبا ونهتم بالمصلحة العامة فلن نستطيع حل أي مشكلة حتى ولو كانت بسيطة مثل نقل الكرسي إلى آخر الغرفة وأعجب تيربون بذلك كثيرا ونسي ما كان مني في أول أيام الدبلومه خاصة أنه عندما كان وقت تصوير صور تذكارية كان موعد آذان الظهر فانصرفت للصلاة ولم أنتظر معه، وأعتقد هو إنني فعلت ذلك عامدا ولكني عندما عدت أخبرته بأنني كنت أصلي واعتقد أننا أصبحنا أصدقاء وفي اليوم الأخير للدبلومه وجدته يترك الجميع ويتجه لي للسلام على وودعته وكنت أتمني لو استمرت علاقتنا إلى مدة طويلة ولكنه كان بدوره مسافرا عائدا إلى بلاده في نفس اليوم الذي انتهت فيه الدورة ولكني عرفت منه انه لديه ولدين في الجامعة وكذلك صديق مسلم دانمركي واخبرني أنه يتناقش معه كثيرا حول الإسلام وعندما عدت إلى القاهرة بعد ذلك سألت عنه في السفارة الدانمركية دون جدوى وكانت الدبلومه فرصة ممتازة للتعرف على الكثيرين من الضباط في الأجهزة الأخرى.

في الواقع كان جو من الصفاء والمودة يسود علاقاتنا جميعا وكان لكل واحد قصته المختلفة فهذا عاش في سوريا وآخر من الكويت وآخر من روسيا وكلا له قصصه وحكاياته المختلفة سواء كانت حزينة أو سعيدة كنا نقصها ونحكيها ونسخر منها حتى قصصهم عن السجون والمعتقلات والتي دخلوها في أي من الدول العربية الأخرى والحق أنني عندما عقدت مقارنة بين

حكايات المعتقلين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية وحياة المعتقلين في السجون العربية اكتشفت أن السجون الإسرائيلية مع شدة التعذيب بها تعتبر فنادق بالنسبة للمعتقلات العربية على اختلافها ولا أنسي حكايات بعضهم عن تلك الغرفة التي سُجن بها والتي كان من المستحيل النوم بها لضيقها مع العدد الموجود بها فكانوا ينامون واقفين وكانوا إذا جاء موعد الغداء أكلوا بالدور واحدا بعد الآخر ولكن أهم ما لفت اهتمامي بالدبلومه أحد المشروعات المقدمة من ضباط بالقوات الحدودية والذي كان تحت عنوان "التسلل" وكان المشروع عن عمليات التسلل إلى داخل الأرض المحتلة وأسباب ذلك واكثر ما لفت انتباهي الشرح الوافي الذي قدموه عن ذلك الحصن الذي أتطلع إليه صباحا ومساءا وعرفت أن هناك سور كبير بارتفاع عشرة أمتار وخلف ذلك السور يوجد الموقع الإسرائيلي وتحصيناته المنيعة وكذلك توجد مزرعة للبقر ولم تكن المشكلة الأساسية بالسور ارتفاعه ولكنه كان موصلا بدوائر إلكترونية تعمل عن قطعه وتقوم بإطلاق أجراس إلى جانب العديد من الحواجز والموانع الصناعية التي صنعها الإسرائيليون داخل الحصن ليصعب الدخول إليه حتى لو تم اجتياز الحصن.

وبدأت أسألهم عن التسليح هناك والإجراءات التي تحدث في حالة الإمساك بالمتسلل وعن إمكانية نجاح هذا النوع من التسلل وفي الحقيقة كانت الأمور نسبية

تماما واحتمالات النجاح أو الفشل غير واضحة فهناك من نجح في العبور وهناك من كسرت ساقه وهناك من تم القبض عليه لذا قمت بزيارة الضباط في موقعهم وبالطبع لم أخبرهم بما يدور في خاطري فقد كانت زيارتي ردا على زيارتهم لي فقط ليس إلا حيث جاءوا لزيارتي ليشاهدوا المروحيات التي لا تعمل إلا أنني أثناء زيارتي لهم كنت أحاول دراسة ذلك الحصن وسألني أحدهم وكأنه فهم رغبتي في التسلل إلى هناك ولكني أجبته مازحا بأنني أريد دخول مزرعة البقر فهذا البقر في النهاية بقرنا نحن وليس بقرهم.

أحضرت بعد ذلك منظار وبدأت أراقب المكان ولم أعد اهتم سوى بذلك الحصن وكيفية اقتحامه ورغم أن الحياة كانت هادئة إلى حد ما داخل غزة طوال فترة السبعة شهور باستثناء حادثة واحدة حدثت لزميل لي انقض المستوطنين على الشاليه الخاص به وأحرقوه ولحسن الحظ كان في الخارج في ذلك الوقت أما أحداث العنف فكنا نسمع عنها بالضفة الغربية أكثر والتي كانت ممتلئة باعتداءات الإسرائيلية خاصة على المزارعين وأراضيهم أما على مستوى غزة فالأمور كان هادئة واخبرني أحد الأهالي أن الإسرائيليون عندما خرجوا من غزة كان ذلك يوم عيد لهم حتى لا يقتلوا داخلها فالمقاومة داخل غزة والتسليح بها قوى ولهذا فالأمور هادئة فالإسرائيليون لا يهاجمون إلا المدنيين أو غدرا وكان حي الشجاعية يمتلأ بأسماء الشهداء فعلى كل بيت كان يوجد أسماء الأبطال الذين استشهدوا

وكان من أشهرهم أيمن عقل ونبيل العابد وربما من أبرز ما حدث خلال تلك الفترة زيارة الرئيس الأمريكي كلينتون وامتلأت غزة بالأعلام الأمريكية في تلك الأيام وكانت المروحيات الأمريكية تملا سماء غزة بل أن فرقتين من البنتاجون حضرت لحماية كلينتون إلى جانب الشرطة الفلسطينية بالطبع وفي اليوم التالي ضربت أمريكا العراق فاحترقت الأعلام الأمريكية التي كانت معلقة فقلت في همس - سبحان مغير الأحوال ولم اكن ألقي بالا على ما يحدث حتى انتقدني زملائي في ذلك حتى إنني لم أكن أبالي بمعرفة أسماء المسئولين الفلسطينيين وكان ذلك يسبب لهم دهشة عظيمة حتى إن أحدهم قال ذات مرة: الحمد لله انه يعرف أبو عمار

فكنت أرد أنني لن أهتم إلا عندما ينادى المنادى: يا خيل الله اركبي..

وهو نداء الجهاد على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مضايقات بعض زملائي لي كنت أرد عليها قائلا - ماذا يضر السحاب مواء هرة أو نهيق حمار ؟!

وكنت دائما أرافق هاني العلى ومكتبته إلا أنه انشغل بعد ذلك بدراسته ثم بدأ يستعد للزواج، أما أنا فكنت لا أهتم إلا بحديقة الشقاقي وشباب حديقة الشقاقي والحصن الإسرائيلي الذي أصبحت أعرف عنه الكثير.

الحصن اسمه "نتساريم"

بينما كنت أتدرب ذات مرة مع الشباب بالحديقة بدأت أقوم بحركة تعرف باسم "360" وبدأت أجربها مع مصعب وطاشت رجلي في الهواء فاصطدمت بأحد الحوائط فجرحت ووجدت نزيفا من الدم يخرج من إصبع قدمي وجلست على الأرض وأسرع الشباب يلتفوت حولي واحضر لي مصعب مطهرًا وبعض القطن وعندها انتبهت لأجد أن الجميع ملتفتين من حولي وسعدت بذلك كثيرا فقد كنت أحبهم جداوفي هذه اللحظة تذكرت حلمًا تكرر معي مرتين على مدار أكثر من عشر أعوام بنفس التفاصيل حيث كنت أحلم أنني أهبط من تل عال ومعي شباب كثيرون وكنت أصيح فيهم ليسرعوا ويمروا من أسفل خندق ما أو ما يشبه باب الجراج قبل أن يُغلق وكنت آخرهم ولم أفلح في المرور ووجدت من يطلق النار على من الخلف وكنت أفيق فزعا في تلك اللحظة، ولولا أن الحلم تكرر مرتين بنفس التفاصيل وكان بين المرتين عدة أعوام لذا ترسب في داخلي صورة أنني سوف أموت بهذه الطريقة، ونظرت للشباب حولي وإلى باب المسجد وإلى حديقة الشقاقي وتساءلت هل تكون هنا النهاية؟ بدأت بالفعل باقتراب أجلي وهنا سألت الشباب عن اسم الحصن الإسرائيلي فرد أحدهم: "نتساريم".

كانت هذه أول مرة أسمع فيها هذا اللفظ فرغم حرصي على الكثير من التفاصيل عن هذا الحصن فإنني لم أسأل مرة واحدة عن اسمه وأخبرتهم برغبتي في دخوله وكان مفاجأة لي أن لديهم معلومات أكثر مني عن كيفية الدخول والخروج وعن مزرعة البقر والتسليح والأبراج والثغرات الموجودة بل وكيفية تجنب الدوائر الإلكترونية بالسور، ولكن سألني أحدهم عن سبب رغبتي في الدخول إليه فأجبتهم بأني سأفعل مثلما فعل فدائي حصن الروم سأصيح الله أكبر وسيهربون جميعا وضحك الجميع ومع ضحكاتهم بدأت الأمطار تنهمر فدخلنا إلى الجامع وبدأت أشرح لهم فكرتي في اقتحام هذا الحصن وضحك أحدهم وهو يقول: الله أكبر مسلمون تاكفو بأربع كلمات سنستولي على حصن كامل للإسرائيليين أعتقد أن الأمر صعب التصديق.

كنت أمسك بقلم وورقة وأنا أرسم المكان بكل التفاصيل التي أعرفها وقصصت لهم كيفية اقتحام حصن الروم، بل إن الألمان في الحرب العالمية الثانية اقتحموا إحدى الجزر بخطة مماثلة بعد أن أقنعوا الإنجليز باقتحامهم للجزيرة والاستيلاء عليه وفي الحقيقة هذا لم يحدث، ولكن حدث عندما ألقوا الرعب في قلوبهم، فهل ينجح الألمان ولا ننجح نحن بالله أكبر؟! ورغم القفشات والضحكات فإن الشباب أبدوا استعدادهم لعمل أي شئ خاصة أنهم كانوا يعرفون أن الإسرائيليين سوف يأتوا لقتلهم متى سنحت الفرصة

لذلك واستمتعنا بمشهد المطر الغزير والذي كان بالنسبة لي مشهدا مميزا لا أراه في القاهرة أما بالنسبة لهم فكان هذا المطر أقل بكثير عن ذي قبل حتى أن أهل غزة صلوا صلاة الاستسقاء!!

وبدأنا نستعد لخطتنا فأحضرت مكبرات الصوت وأحبال وأدوات لقطع الأسلاك وساعدني الشباب في ذلك كثيرا وساورتنى لحظات اعتقدت فيها أنني أقوم بمغامرة حمقاء، ولكني الأمان الوحيد بها أننا بدون أسلحة حتى إذا تم القبض علينا لا يتم قتلنا ويعتقدوا أننا نتسلل بغرض البحث عن عمل داخل الأرض المحتلة ولكن ما دون ذلك فكان تهور بكل معاني الكلمة ولكني تذكرت قصة فدائي حصن الروم وأخذ أتلو آيات من سورة الحشر "فألقي الله في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار" أشعر بالاطمئنان والثقة فيما أفعل وعادت بي الذاكرة إلى فترة ما قبل دخولي غزة بالتصريح حيث كنت أواجه مشاكل مادية عظيمة خاصة أنني فقدت كعملي كضابط بالجيش الفلسطيني وبينما أنا بالمسجد قرأت حديث "الناكح يريد العفاف" وهنا سألت هل إذا تقدمت لخطبة فتاة بنيه العفاف ساعدني الله وهنا اطمأننت إلى الحديث وإلى كلام رسولنا الكريم وأتكلت عليه وبالفعل بعد أيام ذهبت لخطبة فتاة وأنا لا أملك شئ وطلب مني أهلها فترة للتفكير وبعد ثلاثة أيام فوجئت بالتصريح ودخولي غزة وكان هذا حلمي طوال السنوات السابقة ورغم أني

أهل الفتاة لم يوافقوا فإني اكتسبت من ذلك الموقف يقينا عظيما على كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم لذا كنت واثقا من نجاح خطتي رغم أن كل يشير إلى فشل مؤكد.

كانت مدة التصريح تقترب من نهايتها ومعها يقترب شهر رمضان الكريم وطلبت من الشباب أن ننفذ العملية أول أيام رمضان، وبالفعل تجمع حولي 60 منهم داخل المنطقة الصناعية وأعطاني أحدهم إشارة بمصباح من يده فقفزت سور الموقع إلى داخل المنطقة الصناعية التي كانت تفصلنا عن الحصن الإسرائيلي ومعي حقيبتي واتجهت إلى حيث الشباب وكان الجميع جلوس وفؤجئت بالعدد فلم أتوقع أن يحضر هذا العدد الكبير وتذكرت عندما اصطحبتهم لنادي الأهلي لتدريب الكونج فو ولكني هذه المرة اصطحبتهم إلى الحصن الإسرائيلي وكان صاحب المصباح شادى وكان بجواره نبيل فهمست لهما مشيرا إلى العدد الكبير - أيه كل ده دى مش عملية دى رحلة للقناطر

وضحك كلاهما، وبدأنا نتجه نحو الحصن، كان الجميع يرتدى السواد والحركة في خفة ورشاقة حتى إنني لم أشعر بهم رغم العدد الكبير وكان قد تم تقسيم الأدوات باستثناء مكبرات الصوت التي كانت معي بالحقيبة، وبدأت كل مجموعة تتجه نحو هدفها وإلى الثغرة التي يعرفونها وما هي إلا دقائق حتى بدأنا

نقترب من الحصن وبدأت أصوات متعددة تسرى إلى مسامعنا، أصوات غير مفهومة ولكنها طمأنتنا أننا في الاتجاه الصحيح نحو الحصن، ولكنى كنت أريد أن أسمع أصوات البقر من المزرعة وطلبت من إحدى المجموعات الذهاب إلى هناك وتحرير كل البقر وكأن البقر ينتظر تلك اللحظة فما أن قام الشباب بتحريره حتى انطلق يجرى هنا وهناك محدثا صوتا مدويا فأسرعت أجرى في اتجاه المستوطنة التي خرج الجنود منها ليعرفوا ماذا حدث وبالفعل أصبحنا على مقربة نصف كيلو منها لم أتخيل أننا أصبحنا بالفعل داخل المستوطنة فنظرت حولي لأجد الجميع يتطلع إلي نبيل وشادى وفداء ومصعب ومجدي وغيرهم وكأنهم ينتظرون مني الأوامر فابتسمت وأنا أقول : "ما تنسوش يا شباب الله أكبر مسلمون تاكفو".

وبالفعل بدأ الجميع في الصياح والجري في اتجاه الجنود وهنا حدث ما أسعدنا فالجنود بدءوا في إطلاق النار ولكن ليس علينا بل في الهواء ثم أسرعوا في الجري كان مشهدا مضحكا بالفعل عشرات الجنود بالأسلحة الرشاشة يهربون وخلفهم الشباب الذي لم يتعد عمر أكبرهم 17 عاما وأثار الأمر جلبة هائلة وكان زلزالا قد وقع فالجميع يهرب والبعض يدمر كل شئ ثم يهرب وآخر يطلق النار في الهواء والكثيرين يسرعوا هاربين ومعظمهم لا يرتدي إلا نصف ملابسه أو لا يرتدي ملابس على الإطلاق، ونحن لانفعل شيئا سوى الصياح الله أكبر مسلمون تاكفو وذلك بعد أن تجمعت

فرقنا معا وانتابت شادي هستيرية من الضحك وهو يرى الجنود المسلحين يهربون تاركين أسلحتهم وآلياتهم فسقط على الأرض ببنيته الضخمة ولم أتمالك نفسي فضحكت بدوري حتى أنني لم أقو على الصياح مجددا الله أكبر مسلمون تاكفو وانتقلت هستيرية الضحك إلى الجميع ونحن نتطلع إلى الحصن المنيع الذي فر جنوده وامتلأ بالنيران في كل مكان وأفقت مما نحن فيه وصحت في الشباب ليحملوا ما يقدروا عليه من ذخيرة وسلاح وأخذنا نجمع ما نقدر عليه ونقوى على حمله وعدنا من جديد نشق طريقنا عائدين.

وكان في انتظاري مفاجأة ظريفة فقد وجدت "مؤمن" ذا الأربعة الأعوام ينتظرنا على عربة كارو بحمارين فوضعنا الأسلحة عليها وكل ما تمكنا من جمعه وأسرع الشباب خلف عربة "الكارو" بينما اتجهت أنا قافزا السور عائدا من جديد إلى غرفتي بالموقع، ولم أنس أن أتناول سحورا قبل الأذان الذي كان قد اقترب ثم أسرعت أتوضأ واتجهت للمسجد للأذان وعندها علت أصوات المروحيات الإسرائيلية في كل مكان ومن لم يستيقظ على صوت الأذان استيقظ على صوت المروحيات التي غمرت أضواؤها أرجاء الموقع لفترة غير قصيرة ثم انصرفت وتعجب الجميع مما يحدث، وفي اليوم التالي سرت أنباء عن هجوم ليلي حدث على القوات الإسرائيلية المتمركزة وعن تكبيد القوات الإسرائيلية للمهاجمين خسائر فادحة أجبرتهم على

الفرار، وفي المساء التقيت مع الشباب في مسجد الشقاقي وكنت أحمل لهم "بار حديد" للتدريب ووضعته لهم وأنا أنصحهم بالتدريب المستمر حتى يستعدوا للإسرائيليين عندما يهاجمونهم وسوف يفعلون في أقرب فرصة متاحة.

ومع مرور أيام رمضان كانت أيام التصريح تقترب من الانتهاء وكان لابد لي من الرجوع إلى القاهرة لتجديد الإقامة ثم عمل تصريح مرة أخرى للدخول من جديد وودعت الشباب وكانوا هم آخر من قابلت فقد كان موعد التدريب بالصالة بعد صلاة الظهر وعندما أنهيت التدريب ودعتهم ونصحتهم بالتدريب المستمر وعدم التوقف مهما حدث وودعوني وأخبرتهم بأنني سوف أعود بعد ثلاثة شهور بعد أن أقوم بعمل تصريح جديد وتجديد الإقامة بمصر، وانصرفت وفكرت أكثر من مرة في البقاء ولكني كنت أعرف أنني سأعود فلا داعي لضياع الإقامة بمصر خاصة وأن أهلي يعيشون هناك وركبت عربة إلى معبر رفح ومن هناك اتخذت طريقا عائدا إلى القاهرة في عشرين رمضان ولكن كانت المفاجأة إصابتي بمرض السكر وتطور المرض حتى أصبت بغيبوبة السكر، وقام زملائي بغزة بتحويلي إلى الساحة المصرية فأصبحت مسجلا على ذمة القوات الفلسطينية بمصر ولا داعي لعودتي لغزة خاصة أنني حاولت عمل تصريح أكثر من مرة دون جدوى ومع بداية أحداث الانتفاضة المباركة عرفت باستشهاد صديقي محمد العطلة داخل سيارته في نفس حادث

الطفل محمد الدرة وكذلك عرفت بانفجار أول دبابة إسرائيلية بالقرب من معبر المنطار على بعد 100 متر من حديقة الشقاقي وكثرت العمليات في هذه المنطقة ولا أحسب إلا أن أحبابي هناك من حديقة الشقاقي التي انبتت هذه الأسود المقاتلة وغيرهم الكثير من أبناء غزة وأبناء حي الشجاعية، هؤلاء الأبطال الذين أفتقدهم منذ أن تركت غزة في عشرين رمضان من عام 1999 وكثيرا ما أجلس أتذكر تلك الأيام طوال 7 شهور كاملة وأتذكر حديقة الشقاقي وموقع الطيران وصالة الكونج فو بمقر الشرطة وشوارع غزة وخاصة حي الشجاعية وطبعا لا أنسى مسلمون تاكفو وأنا أتطلع إلى اليوم الذي أقولها ولكن لا لأفزع الثعابين ولكن لأخبرهم بحقيقة تحدث بالفعل وهي أن المسلمين بالفعل هجموا ليستردوا كرامتهم وأرضهم السليبة، لم أستطع أن أتوقف عن التفكير في هذه المدة التي قضيتها هناك وكأنها حياتي كلها وكأني لم أعش سوى سبعة شهور فقط لذا وجدت نفسي أكتبها في تلك القصة وأنا أتطلع إلى اليوم الذي أتقابل فيه مع أحبابي هناك في غزة خاصة شباب حي الشجاعية ومن يدرى كيف سيكون حال هذا اللقاء؟.

محمد خليل الكسيح